دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الدراسات الأدبية : مشروعيتها ، طبيعتها ، أشكالها ، صلاتها
المصدر:	الموقف الأدبي
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	أصطيف، عبدالنبي
المجلد/العدد:	مج 21, ع 248
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1991
الشهر:	كانون الأول
الصفحات:	17 - 22
رقم MD:	313510
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الأدب العربي، النقد الادبي، الابداع الادبي، النص الادبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/313510

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الدّراسة الأدبيّة

مشروعيّتها
طبيعتها
أشكالها
صلاتها

د. عبد النبي اصطيف

يكتب ميخائيل نعيمة في غربالـه ساخرا ممن لا يميزون بين طبيعة معرفة انسانية واخرى ، فيخلطون على سبيل المثال ، بين الادب ودراسته :

« من الناس كذلك من يقول ــ ويقول باخلاص ــ انه لاصلاحية لناقد أن ينقد شاعرا أو كاتبا او ابن اي فن كان من الفنون الا اذا كان هو نفسه شاعرا او كاتبا او من ابناء ذلك الفن . فجوابي لهؤلاء هو جواب أحدهم وقد سمع هذا الاعتراض هينه فقال : « أعلي أن أبيض البيضة ، اذن ، لأعرف ما اذا كانت صالحة او فاسدة » (١) .

وعلى الرغم من أن جوابا كهذا مفحم بما فيه الكفاية ، الا انه لا يمنع الكثيرين وعبر العصور من ترديد الاعتراض نفسه بصورة أو بأخرى . ولذا فان المرء يجد نفسه مضطرا بداية لمواجهة جملة من تساؤلات تثار حول :

ــ مشروعية دراسة الادب أو الدارسة الادبية .

ــ طبيعة الدراسة الادبية واشكالها .

ــ صلتها بالادب بشكل خاص، وبالمعارف الانسانية الاخرى.

* * *

١ ـ مشروعية الدراسة الادبية :

قد يحتج البعض بأن الادب ، كما يذكر رينيه ويليك ، « لا يمكن أن يدرس على الاطلاق ، فنحن نستطيع فقط أن نقرأه ونتذوقه ونقدره » (٢). وقد تبدو محاجة كهذه معقولة فالادب فن من الفنون الجميلة تقوم طبيعته ووظيفته على أساس من الخبرة الجمالية التي تنتهي بها قراءته، وهذه الخبرة ، فيما يظهر للوهلة الاولى ، مسألة فردية لا سبيل الى اخضاعها لاي ناظم أو ضابط ، وأية محاولة لفحصها أو دراستها دراسة متأنية لن تؤدي الا الى تأكيد فرديتها وطابعها الشخصي .

والحقيقة ان دراسة الادب ضرورة لا غنى لنا عنها من جهة ، وواقع له تاريخ عريق لا سبيل الى التنكر له من جهة أخرى . اما عن كونها ضرورة فلان الادب جزء من الموروث الثقافي الذي تحرص أية أمة حية على حفظه ونقله من جيل الى جيل من جانب ، ولانه فيض يشبه الزمن الى حد بعيد في استمراره وتدفقه من جانب آخر .

□ هل الدراسة الادبية مشروعة اذا لم يكن الدارس ينتج النوع الادبي الذي ينقده ؟

ذلك أن حفظ هذا الفيض ونقله يقتضي ، في اقل الحدود ، تأطيره ، وتقسيمه ، وتوزيعه على وحدات يسهل استيعابها ، ومن ثم تصنيفه وفق معايير مستمدة من داخله أو خارجه . وفضلا عن ذلك فانه لابد من اختيار ما ينبغي حفظه ونقله ، وبالتالي من وضع اسس لهذا الاختيار ثم ان القيام بكل ماتقدم لايمكن ان يسند الا الى فئة تستطيع النهوض بعبء هذه المهمة الجليلة ، وكفاءة هذه الفئة التي يمكن للمجتمع ان ينوط بها هذه الوظيفة الحيوية التي تحفظ عليه وجوده واستمراريته ووحدته ، تتحدد بمقدار ماتملكه من خبرة نوعية خاصة بهذا الفيض ، أي من معرفة ذات سمات خاصة بها تميزها عن غيرها ، تتيحها الممارسة أو التحصيل .

□ الدراسة الادبية لايعول فيها على الفطرة او الموهبة كالادب الابداعي، انها تقوم على المعرفة

والحقيقة ان هذه المعرفة النوعية الخاصة بشؤون هذا الفيض ، الذي يشكل جزءا هاما من الموروث الثقافي للامة ، كانت باستمرار موضع عناية الامم والشعوب في مختلف العصور والامصار، وحسب المرء ان يشير في أيامنا هذه الى مختلف المؤسسات التربوية والثقافية والاعلامية التي يشكل الادب ، هذا الفن الجميل ، بمختلف وجوهه وقضاياه وشؤونه ، شغلها الشاغل ، أو حيزا معتبرا من اهتماماتها ونشاطاتها تكتسب غالبا ، ولا يعول فيها على مجرد الفطرة او الموهبة ، وهل ثمة من يشكك اليوم باهمية هذه المعرفة في الاسرة ، والمدرسة ، والجامعة ، والمعهد ، والاذاعة ، والاذاعة المرئية ، والمركز الثقافي ، والمكتبة العامة ، والمسرح ، والسينما ، وغيرها من مؤسسات المجتمع الحيوية في الحفاظ على وحدته ووجوده واستمراريته .

ب ـ طبيعة الدراسة الادبية وأشكالها :

الدراسة الادبية ضرب من المعرفة او التحصيل المنظمين الناشئين عن مواجهة تجربة الابداع الادبي . ذلك ان المرء ، في مواجهته للادب ، يحاول ان يستوعب التجربة الجمالية فيه من خلال وضعها في أطر ما تنظمها وتيسر تناولها من وجوهها المختلفة . وهذه الاطر مستمدة في الغالب من المعرفة المتراكمة عبر العصور والتي طورتها الانسانية للتعامل مع الظاهرة الادبية بغاية حفظها ونقلها من جيل الى جيل باعتبارها جزءا من الموروث الثقافي الذي يكفل وحدة الامة وتماسكها وبقاءها .

ومواجهة التجربة الابداعية في الادب (المتجسدة في نص أدبي قد يكون قصيدة ، او قصة قصيرة ، او رواية ، او ملحمة ، او سيرة ذاتية ، او مقالة ، وغير ذلك) تختلف في طرقها وأسسها وغاياتها. ومعنى هذا ان الدراسة الادبية تتنوع بتنوع هذه الطرق والاسس والغايات،ولكنهاتظل على نحو أو آخر ، متصلة بتجربة الابداع لاتكاد تبارحها ، فهي دراسة للادب ، وهويتها ،وطبيعتها ، ووظيفتها وحدودها ، وكل مايتعلق بها ، تتحدد بهذه التجربة الادبية والا كانت شيئا آخر .

وهكذا فان هذه المواجهة ان كانت تستهدف التأكد من صحة النص الادبي وسلامة نقله ، وصحة نسبته الى مؤلفه سميت تحقيقا للنصوص . فالتأكد من صحة نص ما ، كديوان امرىء القيس ، يقتضي جمع ما وصلنا من مخطوطات هذا الديوان ، ودراسة كل مخطوطة ومعرفةتاريخها وناسخها وظروف نسخها ، ومقارنة هذه المخطوطات بعضها مع بعض ، والمفاضلة فيما بينها،واتخاذ واحدة منها لتكون أساسا في اعداد نسخة الديوان التي نود نشرها ، وتسجيل الفروق التي نتسلمها بين هذه النسخة والنسخ الاخرى ، وابداء الرأي في أقربها الى روح النص الاصلي كما يتراءى للمحقق ، والخروج في النهاية بنص للديوان يمكن الزعم بأنه نص امرىء القيس حقا في حدود ماتيسر للمحقق من معرفة عنه وعن ظروف نسخه ونقله الى ان وصل الى يديه . ان هذه المعرفة التي تنجم عن مواجهة تجربة الابداع الادبي على هذا النحو ، ولتلك الغاية نسميها تحقيقا للنصوص .

□ الدراسةالادبية استقراء ومتابعة وربط وتعميموتصنيف وتدقيقومقارنة

واذا كانت هذه المواجهة تستهدف معرفة نشأة جنس أدبي ما وتطوره عبر العصور على سبيل المثال كان تاريخا أدبيا ، فالجنس الادبي الموسوم بالرواية في أدبنا العربي الحديث جنس مستلهم من الآداب الاجنبية التي أتيح لنا الاحتكاك بها في القرن التاسع عشر . ودراسة ظروف هذا الاحتكاك ، وطرقه كالاتصال المباشر هذه الآداب الاجنبية بلغاتها الاصلية ، او ترجمة ملخصة ، او ترجمة دقيقة ، وتفحص النماذج الاولى للرواية التي انتجها المؤلفون العرب المحدثون ، ثم تفحص النماذج التالية التي خرج بها المؤلفون العرب من الاجيال التي تلت جيل الرواد ورصد مأطرأ على هذه النماذج من تطور في جميع الوجوه ، بغرض تكوين صورة أوضح عن نشأة الرواية العربيةفي العصر الحديث وتطورها الى ان استوت على الصورة التي نراها عليها اليوم ، هذا كله نسميه تاريخا أدبيا (٣) .

□ الدراسةالادبية تقوم على مواجهةالتجربة الابداعية والاحاطة بكل جوانبها .

اما اذا كانت مواجهة التجربة الابداعية في الادب تتخذ شكل شرح النص الادبي ، وتحليله ، وتفسيره ، وموازنته بغيره من النصوص ، والحكم عليه فاننا عندها ندعوها نقدا أدبيا تطبيقيا ، فتناول قصة قصيرة لزكريا تامر مثل قصة « ربيع في الرماد » ، وشرحها للقارىء ، وتحليل شخصيات شهريار ، وندى (شهرزاد الاولى) ، والفتاة (شهرزاد الثانية) ، ودراسة تطورها ، وعلائقها ، وما تحمله من دلالات ، وتفسير كل ذلك ، وموازنته باستخدامات أخرى لموضوع شهرزاد وشهريار ، ولاسطورة العنقاء ذاك الطائر الذي ينبعث من الرماد ، والحكم في النهاية على عمل زكريا تامر ، نسميه نقدا أدبيا تطبيقيا (٤) .

وفي حال كون هذه المواجهة للتجربة الابداعية تقوم على دراسة النصوص المختلفة المنتمية لجنس أدبي ما ، او أدب أمة ما ، في مكان ما ، في زمان ما ، بغرض الوصول الى النظام الادبي، او مجموع الاعراف ، والمعايير والمقاييس ، والقيم التي تحكم انتاج هذه النصوص ، وتجعل عملية انتاجها ممكنة بالدرجة الاولى سميت نقدا أدبيا نظريا ، او نظرية ادب داخلية ، او شعرية poetics كما نجد في كتاب فن الشعر لارسطو ، أو كما هو الحال عندما ندرس المقدمات الطللية ، والمقدمات الوصفية في القصائد الجاهلية والاسلامية على سبيل المثال ، ونحاول الوقوف على الاعراف الجاهلية او الاسلامية التي تحكم شكلها ، ومضمونها ، ومعايير الجودة التي تحدد

موقعها على سلم القيم السائدة في العصرين الجاهلي والاسلامي ، ومقاييس صحة الاداء والتعبير، والقيم الفنية والاجتماعية التي اسست عليها هذه المقاييس وتلك المعايير ، حتى نخرج بنظرية للمقدمتين الطللية والوصفية في الشعر العربي الجاهلي والاسلامي ، او بنظرية ادب داخلية او بنظام ادبي يحكم كل صورها التي وصلتنا في شعرنا العربي في العصرين معا .

اما في حال الاهتمام في مواجهتنا للتجربة الابداعية للادب بصاحبها أصله ، وحياته،وتكوينه الثقافي ، وبيئته ، وعصره من مختلف النواحي وصلة كل ذلك بادبه وتاثيره فيه ، فنحن عندئذ نقوم ببحث ادبي نجمع فيه المعلومات ، ونصنفها ، ونبوبها ، ونسوقها في هذه الوجهة او تلك ونحللها على هذا النحو او ذاك ، لنخرج من كل ذلك بنتائج ربما يكون لها تاثير كبير في فهم ادبه وتذوقه ودراسته . ومثال ذلك اهتمامنا بحياة أحمد شوقي ، طفولته ونشأته وتعليمه المبكر ، ودراسته في مصر ، ومن ثم في فرنسا ، وعودته بعد ذلك للخدمة في قصر الخديوي ، ونفيه الى اسبانيا ، ثم عودته ثانية ومحاولاته المختلفة في التجديد ، وامارته للشعر العربي وغير ذلك ، وعنايتنا بدراسة صلاته السياسية والاجتماعية والثقافية داخل مصر وخارجها وتاثير ذلك في تكوينه الثقافي ومن ثم في انتاجه الشعري الغنائي والمسرحي ، وسعينا للاحاطة ببيئته وعصره من جميع النواحي بغاية تبين ما خلفاه من أثر في أعماله الادبية ، الى آخر ماهنالك من أمور وسائل تندرج دراستها تحت عنوان البحث الادبي(٥) .

□ ماعلاقة الدراسة الادبية بظروف المبدع: بحياته وتعليمه وثقافته ؟

□ التحقيق والتاريخ الادبي والنقد الادبي، التطبيقي منه والنظري ، والدراسة المقارنة كلها اشكال للدراسة الادبية

واخيرا فاننا اذا ما سعينا في مواجهتنا للتجربة الابداعية للكاتب الى الوقوف عند نقاط تماسه بالنصوص الادبية الاخرى التي أتيح له الاطلاع عليها في مرحلة ما من مراحل تكوينه الثقافي، ودراستها لمعرفة ظروف وقوعها ، وشروطه ، وما تركته من آثار ايجابية او سلبية في عملية الانتاج الادبي لديه ، فنحن ندرس هذه التجربة دراسة أدبية مقارنة تدخل فيما اصطلح عليه بالادب المقارن هذا الحقل المعرفي الجديد الذي شهدنا ولادته في استدارة هذا القرن . ومثال ذلك ان نتبين صلة مسرحية بيغماليون لتوفيق الحكيم بأسطورة بيغماليون اليونانية المشهورة ، ونبحث في أصل هذه الاسطورة وكيف كانت ، وكيف انتقلت معرفتها الى توفيق الحكيم ، وباي سبيل،وما طرا عليها من تحول نتج عن توسط مسرحية بيغماليون لبرناردشو ومن ثم الفيلم الذي أعد عن هذه المسرحية وهو فيلم سيدتي الجميلة ، بين الاسطورة وتوفيق الحكيم الذي شاهد الفيلم فحفزته هذه المشاهدة على تاليف مسرحيته ، لنخلص بعد ذلك الى الوقوف على الآثار المختلفة التي خلفها اطلاعه على هذا الفيلم في انشائه لمسرحيته على الصورة التي وصلت الينا ، ونستطيع ان نحكم على نحو افضل ، واكثر موضوعية ، على عمل الحكيم بوصفه من كبار مسرحيينا ، اننا اذ نقوم بذلك انما ندرس مسرحية الحكيم دراسة ادبية مقارنة تنطوي تحت الحقل المعرفي المدعو بالادب المقارن (٦) .

ان تحقيق النصوص ، والتاريخ الادبي ، والنقد الادبي التطبيقي ، والنقد الادبي النظري او الشعرية ، والبحث الادبي ، والدراسة الادبية المقارنة كلها اشكال من الدراسة الادبية ، او دراسة الادب ، او من المعرفة أو التحصيل المنظمين الناجمين عن مواجهتنا لتجربة الابداع الادبي على نحو ما ، لغاية ما ، وهذه المعرفة قابلة للاكتساب والنقل ، الاكتساب الذاتي ، والنقل الى الآخرين ، وليس هناك من مجتمع بلغ درجة معقولة من التقدم لم يعن بها العناية التي تيسر توظيف موضوعها (الادب) في تربية أجياله وترسيخ شعورهم بهويتهم وانتمائهم القومي.

ج ـ صلات الدراسة الادبية :

الدراسة الادبية معرفة منظمة ناجمة عن مواجهة تجربة الابداع الادبي بطرق محددة وغايات محددة ، وهي ، مثلها في ذلك مثل أي نشاط انساني آخر ، ذات صلة بنشاطات الانسان الاخرى

على اختلاف أنواعها ومظاهرها . وربما كانت صلتها أوثق ماتكون بالادب الذي هو نشاط انساني ايضا . وقد تقدم الحديث عن عضوية هذه الصلة بين الادب ودراسته ، او بين الادبوالدراسة الادبية فالادب هو موضوع الدراسة الادبية ، ومادتها الاهم ، وغايتها الاسمى ، فنحن مهما تنوعت طرق دراستنا ، واختلفت اجراءاتها وغاياتها ، انما ندرس الادب بالدرجة الاولى ، ونحن كذلك في دراستنا لهذا الادب بطرق واجراءات وغايات متنوعة نجد انفسنا ، في مواجهتنا لتجربة الابداع الادبي ، امام مادة جلها من الادب . صحيح اننا قد نضطر في احايين معينة الى تناول مواد اخرى تتصل بمنتج النص الادبي او عصره او بيئته او متلقيه ، ولكن النص الادبي يظل في ساحة وعينا ونحن نقوم بكل ذلك . وهو لايغادرها ابدا ، فهو الحافز الاول على هذه الدراسة، والهدف الاهم لها ، والغاية الاسمى منها ، فنحن ، على سبيل المثال ، لم نكن لنعنى بالمتنبي ولادة وحياة وتكوينا ثقافيا ، وصلات متنوعة ، ومغامرات لاتنتهي ، وغير ذلك ، لولا انه خلف لنا شعرا رائعا تحدى الزمن وأصبح شغل الناس يختصمون فيه ويختلفون . ونحن لانعنى هذه العناية بالمتنبي وكل ما يتصل به الا لغرض هام ، وغاية سامية ، هما الوصول الى فهم أعمق وأشمل لهذا الشعر الذي غدا جزءا هاما من موروثنا الشعري ، وأصبح مكونا ملحوظا من مكونات شخصيتنا بوصفه جزءا من ذلك الموروث .

أما عن صلة الدراسة الادبية بنشاطات الانسان الاخرى وخاصة المعارف المختلفة التي تنتهي بها هذه النشاطات ، فهي واقع من جانب ، وخيار مغر من جانب آخر ، أما عن كونها واقعا فامر يشهد له التاريخ الانساني ، اذ ليس يخلو تاريخ قومي أدبي من صلة ما تقوم بين الدراسةالادبية وبين المعارف الانسانية الاخرى ، وأما عن كونها خيارا مغريا فلانها يمكن ان تقدم انموذجا تستطيع محاكاته في تناولها للادب . وهكذا فان العلوم الطبيعية كثيرا ماتغري الدارس الادبي باستخدام مناهجها ، او بمجاراة مثلها العلمية العامة في الموضوعية ، واللاشخصانية ، واليقينية . يكتب رينيه ويليك في معرض الاجابة عن سؤال واقعي كثيرا ما يساله دارس الادب خاصة ، والفن عامة هو « كيف تعالج الفن معالجة فكرية ، والفن الادبي منه بوجه خاص ؟ » فيقول:

« تقول احدى الاجابات ، المعالجة ممكنة بمناهج مطورة عن العلوم الطبيعية ، وهي لاتحتاج لغير التحويل الى دراسة الادب ، وبالامكان ان نميز عدة أنواع من التحويل ، احداها ان تحاول مجاراة المثل لعلمية العامة في الموضوعية ، واللاشخصانية ، واليقينية ، وهي محاولة تفيد على العموم في جمع وقائع محايدة . والاخرى هي السعي الى تقليد مناهج العلوم الطبيعية من خلال دراسة الاصول والعوامل المسببة ، ومن ناحية الممارسة ، يسوغ هذا « المنهج التكويني » تقصي أي نوع من الصلات مادام ذلك ممكنا على صعيد التسلسل الزمني ، ولدى التطبيق الصارم يمكن استخدام العلية العلمية لتفسير الظواهر الادبية باسناد العلل الفاصلة الى الشروط الانسانية الادبية والاجتماعية والسياسية ، وهنا نجد ، كرة أخرى ، اقحاما للمناهج الكمية التي تصلح لبعض العلوم ، كالاحصاء ورسم الخرائط والخطوط البيانية ، وأخيرا هناك محاولة استعمال المفهومات البيولوجية في تتبع نمو الادب » (٧).

وكذا الشان بالنسبة لعلوم اخرى ، كالعلوم الانسانية من مثل علم النفس وعلمالاجتماع ، واللغويات ، وغيرها اذ لكل منها اغراؤه الخاص به ، وأكثر من هذا فان هذه الصلة بين الدراسة الادبية من جهة وعلم آخر من جهة اخرى كثيرا ما تطبع الدراسة الادبية بطابعها ، وهكذا امكن الحديث ، في معرض تصنيف مناهج الدراسة الادبية عن مناهج نفسية ، واخرى اجتماعية،وثالثة لغوية ، وغيرها مما يعكس مدى اتكاء الدراسة الادبية على هذه العلوم في تنظيم نفسها ، وخاصة مايتصل بادوات البحث واجراءاته ، وطرقه ، ومنظوراته .

□ الدراسةالادبية ليست فرعا قائما بذاته ، انها ذات صلة بنشاطات الانسان الاخرى .

□ الدراسةالادبية لاتنفصل عن المعرفةوالاطلاع على العلوم الاجتماعية وغيرها من العلوم .

حواشي الدراسة الادبية

مشروعيتها ، طبيعتها ، اشكالها ، صلاتها

(١) أنظر ميخائيل نعيمة ، الغربال ، ط ١٢ ، (مؤسسة نوفل ، بيروت ، ١٩٨١) ، ص (٢٠) .

(٢) انظر رينيه ويليك وأوستن وارين ، نظرية الادب ، ترجمة محيي الدين صبحي ، مراجعة د . حسام الخطيب ، ط ٣ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥) ، ص (١٣) .

(٣) أنظر الفصل التاسع عشر المعنون بـ « تاريخ الادب » في المرجع السابق ، ص ص (٢٦٧ – ٢٨٤) .

وانظر كذلك

— René Welleh,

« Six Types of Literary History » ,

English Intitute Essays, 1946 ,

(Columbia University Press, New York, 1947), PP. (107 - 126)

— R. S. Crane,

Critical and Historical Principles of Literary History, (The University of Chicago Press, Chicago and London, 1971).

— Ralph Cohen (ed.),

New Directions in Literarq History ,

(Routledge and Kegan Paul , London, London, 1974)

فضلا عن « New Literary History » الامريكية ذائعة الصيت والتأثير

(٤) انظر النقد الممتاز الذي يقدمه د. محمد شاهين للقصة في كتابه

The Modern Arabic Short Story , Shahrazad Returns

(Macmillan, London, 1989) PP. (70 - 4).

(٥) أنظر على سبيل المثال كتاب :

عرفان شهيد ، العودة الى شوقي أو بعد خمسين عاما .

(الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٦)

(٦) أنظر مقدمة توفيق الحكيم لمسرحية بيغماليون ، و د . أحمد عثمان .

المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم

(الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨)

وبخاصة الصفحات (١١ – ٤٣) ، وكذلك عدنان وزان

Adnan M. Wazzan, « Shaw,s and al-Hakim,s Pygmalion »

في كتابه :

Essays in Comparative Literature ,

(Ithaca Press, London, 1985), PP. (113 - 31).

(٧) أنظر رينيه ويليك وأوستن وارين ،

نظرية الادب ، ص (١٤) .